كيف كان يكتب ؟

اختيار الموضوع، كان أولَ عمل يحتفل له الرافعى ؛ وإذ كان لم يعمل فى الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة ، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع ، إذ لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده فى نفسه قبل أن يطلبه ؛ فلما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، راح يلتمس الموضوعات التى تصلح أن يكتب فيها للرسالة ، فكان يضيق بذلك ويتحير ، ثم لم يلبث أن تعودها ، فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ؛ ويلقى باله إلى كل محاورة ، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس : ثم لا يبدأ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره، إلا أن يجد له صدى فى نفسه ، وحديثاً فى فكره ، وانفعالاً فى باطنه ، وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع ؛ وكثيراً ما كان يتأبَّى عليه القول ، فلا يجد موضوعه إلا فى اللحظة الأخيرة ، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام !

فمن خشية مثل ذلك ، كان دائماً فى جيبه ورقات ، يكتب فى إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب ، ليعود إليها عند الحاجة ؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التى تتفق له فى أىٍّ من هذه الموضوعات أين يكون ، وبلغ بذلك أن يجتمع عنده فى النهاية ثَبتٌ حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها ، وورقاتٌ أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى فى أكثر من موضوع واحد ، لا تربط بينها رابطة فى المعنى ولا فى الموضوع . ومن هذه الورقات ، ومن فضلات المعانى فى المقالات التى كتبها وفرغ منها — كان يختار « كلمة وكليمة » التى كان ينشرها على قراء الرسالة فى فترات متباعدة

كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة . فهذه الكلمات هى إحدى ثلاث : خواطر مبعثرة كان يُلقّاها فى غير وقتها ، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها ، أو فُتاتٌ من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعانى بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التى كان يختارها ليكتبها فى وقتها ، كان يَعِد قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها ولا يفى بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً فى ورقة بيضاء

ومن ذلك مقالة (الفيلسوف الزبّال) التى وعد أن يكتبها حين أنشأ قصة « بنت الباشا » ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً فى رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعانى التى كان يدخرها إلى يومها المؤمّل !

ولقد وجدْتُ على مكتبه فى طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ...!

* * *

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذى يتهيأ لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيئ له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً ما ، يطول أو يقصر ، يقيد فى أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شىء مادة وَحْى ، فكأن فى كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن فى كل ما يسمعه لوناً يراه ، وكأن فى كل شىء شيئاً زائداً على حقيقته يملى عليه معنى أو رأياً أو فكرة ...

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافى لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — أخذ فى ترتيبها معنى إلى معنى ، وجملة إلى جملة ، ورأياً إلى رأى . فهذه هى الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفى عنها من الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكليمة » أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ،

ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعى إلى القراء فى قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء .

***

لم تكن الكتابة عند الرافعى فكرة ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فنًّا وأسلوباً وصناعة ؛ والأدب العربى منذ كان إلى أن يُطوَى تاريخه بين دفتين هو فكر وبيان ، ما بدّ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدباً يستحق الخلود . ذلك كان رأى الرافعى ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت فى خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيء لها الثوب الأنيق الذى تظهر به لقرائها ؛ وهذه هى المرحلة الأخيرة .

وأول ما يعنيه فى ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعنى العبارة التى يبدأ بها والتى يختم ، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام فى الموضوع . شأنه فى ذلك شأن القاصّ : تجتمع له أسباب القصة بمقدماتها وحوادثها وما آلت إليه مرتَّبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت ؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ، ليعقد (العقدة) ويُرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته ... وكذلك كان الرافعى يفعل فى مقالاته .

... فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول فى الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبته ، فيطوى وريقاته ساعة ، ليرجع إلى كتاب ، أىِّ كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق ، لإمام من أئمة البيان العربى ، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب فى بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ فى هذا الباب ، كتابات الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغانى لأبى الفرج

وسألته فى ذلك مرة فقال : « نحن يا بنى نعيش فى جوٍّ عامي لا يعرف العربية ، ما يتحدث الناس وما ينشئ كتّاب الصحف فى ذلك سواء ، واللسان العربى هنا ، فى هذه الكتب . إنها هى البادية لمن يطلب اللغة فى هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية ... » .

على أنه كان لا يُفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة إلا الجوّ البيانىّ فقط. أما حروف اللغة ، وأما أساليب اللغة، فلم تكن تعنيه فى شىء ؛ فيقرأ عجلانَ غير متلبّث كما يطالع صحيفة دورية ، حتى يفرغ من الفصل الذى بدأ ؛ ثم يطوى الكتاب ويستعد للاملاء .

وإذا كان كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار فى الكتابة ، فإن الرافعى كان — على ما فى أذنيه — يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده ... كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة ، وكان لى نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليملى علىّ ؛ فكان يلذنى أحياناً والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروّح ، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف . وعرفت عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة معاً ، لأصلى حرّ الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذينى من ذلك أننى كثير التدخين ؛ والحر والمجهود العصبى يزيدان الرغبة فيه ، فلا تمضى ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة برهة لتجديد الهواء نتبادل فيها الحديث ، ثم أعود فأغلقها ليملى علىّ ... على أنه فى غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضى فى الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى فى برد الشتاء القارس ؛ فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبًّا كما يُقبل الشارب الحرّان على الماء فى يوم قائظ ...

ولم أكن أقاطعه حين يملى علىّ مقاطعةً ما ، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال فى الموضوع من فصل إلى فصل ، فألقى إليه ما أريد أن أقوله مكتوباً فى ورقة ، لأحاوره فى عبارة أو لأستوضحه معنى ... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتاً ، وهو لا يرفع عينيه إلىّ ، كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه

فى نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يخيَّل إلىَّ أحياناً وأنا صامت فى مجلسى والقلم يجرى فى يدى على الصحيفة وأذنى مرهفة للسمع — كأنه فى شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشىء إلا إدراكاً غير مجسَّد . وأحياناً أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملنى ، فما أكتب كلاماً يمليه علىَّ ، ولكن تمليه نفسى على نفسى وإن صوته ليرنّ فى أذنى بما سبق إليه خاطرى ...

ولم يكن يملى مسترسلا ، ولم يكن يملى وانياً متمهّلا ، ولم يكن فى كل أحواله سواء ؛ فحينا يطاوعه القول ، وحيناً يتأبىَّ عليه فيسكت وهو يدق على المكتب بحديدة فى يده ويغمغم بصوت لا يبين ؛ فإذا طال به الوقوف تناول كتاباً أىَّ كتابٍ على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطراً أو جملة ؛ ثم يطوى الكتاب ويعود إلى الإملاء . ولقد يراه من يراه فى هذا الوقت فيحسبه يملى مما قرأ ، وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعوّدها حين يُرتج عليه وتعوّد أن يجد فيها مفتاح القول ...

ولقد تأبى عليه القول مرة فطال به الصمت ، فمد يده إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكا : « ياأخى ، لقد تعودتُها وما أجد لها علة ، وتعوّدت بها أن أجد ما أريد عند أول كلمة أقرؤها ولو كان الكتاب معجماً لغويا ... » وكان الكتاب الذى مد إليه يده هو (القاموس المحيط) ، قلت : « إن فى بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية ... » قال ! « صه ، هذه هى الكلمة التى أريدها : المفاتيح العصبية ... » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الاملاء .

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعاً من نفسه فيردّها وما بها من عيب ، ليبدل بها جملة تكون أكثر رنيناً وموسيقى . وكان له ذوق فنى خاص فى اختيار كلماته ، يحسه القارىء فى جملة ما يقرأ من منشآته ، وكنت أجد الإحساس به فى نفسى عند كل كلمة وهو يملى علىَّ . هذا

الذوق الفنى الذى اختص به ، هو الذى هيّأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه فى كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة . وحسب القارىء أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه[1] . . . » ليرى نموذجاً من هذا الذوق الفنى العجيب فى فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الإنشاء . وكان إلمامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية فى مترادف الكلام — معينة له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أساليبه ، فتأبىّ عليه ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب المخصّص لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب فأخرجتُه إليه ؛ فما هو إلا أن فتحه حتى وقع على مراده ، فطوى الكتاب وعاد إلى إملائه . وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة . ومع حرصه على أن يكون قوىّ العبارة عربىّ الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين ، وكم أجدّ على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له فى إنشاء (الكناية) إحساس دقيق ؛ وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبع ما أجدّ الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله الكاتب من كتاب العربية الأولين ؛ إذ كان مذهب الرافعى فى الكتابة هو أن يعطى العربية أكبر قسط من المعانى ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وقد بلغ ما أراد .

إننى لم أعرف كاتباً غير الرافعى يجهد جهده فى الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل ؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغاً من صحيفته يريد أن يمتلىء ؛ على أنه أحياناً كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها أو يفرغ له باله ، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد ، ولكنك مع ذلك تجد عليها طابع الرافعى وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه ؛ والعجيب

(١) وحى القلم جـ ١ ص ١٠٦ — سمو الحب

أن هـذا النوع من المقالات التى كان الرافعى يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحبَّ إلى كثير من القراء ، وكان الرافعى يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة منهم ...

والشاى أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التى يطلبها الرافعى عند ما يكتب ، وفنجانة أو اثنتان هما حسبه فى هذا المجلس الطويل . وعلى أنه فى أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) ويستعيض عنها بالدخان فى أثناء الكتابة ؛ فإنه لم يكن يدخن إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين فى مجلس الكتابة ؛ فكان يشترى العلبة فتظل فى درج مكتبه شهراً إذا لم يزره فى مكتبه زائر ...

... فإذا فرغ الرافعى من إملاء مقاله ، تناوله منى فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله فى الصباح بعد صلاة الفجر ، أن يعود إلى المقال الذى أملاه علىَّ فى الليل فيقرأه ويصححه ... ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يهيئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هى عمل الفكر ، وكد الذهن ، وجهد الأعصاب وحديث النفس فى أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة ... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب « رسائل الأحزان » فى بضعة وعشرين يوماً ، وكتب « حديث القمر » فى أربعين ، وكتب « السحاب الأحمر » فى شهرين ...

وقال قائل من خصومه : « إنه يقاسى فى هـذه الكتابة ما تقاسى الأم من آلام الوضع ...! »

وقال الرافعىُّ يجيبه : « أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها ... وعلىَّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله ! »